عدد 49 جوان2018، المجلد – ا - ص. ص 475-485

# النسائية بين وجع الذّات وسلطة الكتابة

مسعودة كودري
كلية الآداب و اللغة العربية
جامعةالاخوة منتوري قسنطينة

**ملخص:**

نروم من خلال هذه الورقة البحثية الوقوف عند الكتابة الأنثوية في ظلّ السلطة الذكورية.هذه الكتابة التي طالما أعدّت هامشا ،لتثبت المرأة بعد ردهة من الزمن أنّها امتلكت ناصية اللّغة و استطاعت إثبات وجودها في مجال الكتابة الذي طبعته بخصائص استمدّتها من سماتها الأنثوية لتؤسّس لكتابة أنثوية تنطلق من ذاتها ساعية إلى خلق كفّة إبداعية مناهضة للإبداع الذكوري تحت لواء الشراكة لا الهيمنة.

**Abstract:**

This paper aims to take a look at the feminine written literature under the influence of the masculine authority.A literature that has always been a breathing space for the women to show off their mastery of the language .women were able to stand for themselves in the domain of literature ,which characteristics were inspired by the feminine attributes .This established the foundation for a feminine literature trying to match the masculine creativity in complementarity rather than domination.

**مقدّمة:**

في ظلّ سيطرة الثقافة الذكورية و هيمنتها على السرد، شقّت المرأة طريقها للتعبير عن ذاتها وخصوصيتها (هويتها)، ساعية إلى خلق كفّة إبداعية مساوية للإبداع الذكوري تحت عنوان الشراكة لا الهيمنة، من أجل تجاوز التقسيم الجنسي للأدب الذي فرض تبعية المرأة للرجل و أكسبها هوية الدون باعتبارها جزءا من الرجل لا جزءا من العالم. " فقد كانت المرأة و ما تزال الآخر الداخلي، آخر الهامش و الظل والعتامة، و ذلك بحكم هيمنة قيم ومعتقدات و سلطات و مؤسّسات و ثقافة متحيّزة تتعامل مع المرأة.

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر 201ر

جسدا و صوتا، و كتابة بنوع من الحذر والريبة و الدونية، و قد ظلّ تحيّز الذكورة لأنفسهم واستئثارهم بالجانب السلطوي، هي المشكلة التي تتحرّك في جسد المجتمعات العربية بقصد أو غير قصد الأمر الذي أدّى إلى إغفال دور المرأة وحقّها في التعبير عن وجودها وإسهامها في إعطاء صورة ديمقراطية مشرقة نابعة من ثقافتنا[1]

من هنا، كان لزاما على المرأة أن تأخذ على عاتقها مسؤولية " تحقيق إنسانيتها و امتلاك خصوصيتها وإثبات هويتها، من خلال كتابة..تنجو من الإنكار و الإقصاء و الاختزال، و تشرك المرأة في الفضاء الإبداعي العام بما يعيد إليها القدرة و الاعتبار"[2] و يمكّنها من خلخلة العرف الروائي السائد، و بناء ثقافة جديدة مختلفة تقوم على الإبداعين (الأنثوي و الذكوري) معا.

لذلك فقد اتّسمت السنوات الأخيرة بنتاج أدبي وفير للروائيات العربيات عامّة و الجزائريات خاصّة، فتحت مجال التساؤل عن خصوصية اللّغة الأنثوية مقارنة بهذا الكم المتراكم من الروايات باعتبارها" الميثاق الأنثوي الذي تسعى فيه المرأة لحماية وجودها المؤنّث من تسلّط الثقافة الذكورية[3].

فآن لنا إذن، أن نتساءل عن كتابة تحمل سمات أنثوية تؤهّلها لأن تكون قيمة إبداعية بحدّ ذاتها تحقّق الامتداد " لوجودها لا على أنّها مجرّد كتابة اختلاف شكلي يحدّده النوع الجنسي،بل باعتبارها كتابة... تملك سماتها الخاصّة تتمشهد فيها أزمة الذات بمقدار ما يتمشهد أيضا خلاصها من المحو و الإلغاء"[4].

من أجل ذلك رأينا أن نتوقف عند مجموعة من النقاط التي انضوت تحت هذا العنوان ممثلة كالآتي:

1. الاغتراب و دوره في تشكيل الوعي الأنثوي.
2. المرأة و فعل الكتابة/ تجسيد الوعي.
3. الوعي بالذات بين اللغة الأنثى و أنثى اللغة.

هذه المباحث التي ستساعدنا على رصد خصوصية الكتابة الأنثوية في تميزها عن الكتابة الذكورية و في تأسيسها لخطابها الذي ينهض من ذاتها.

**أوّلا:الاغتراب و دوره في تشكيل الوعي الأنثوي:**

تدرك المرأة جيّدا أنّ أعلى صور اغترابها و فجيعتها تكمن في كونها أنثى بالدرجة الأولى، هذا الاغتراب الذي مثّله القرآن الكريم أحسن تمثيل في قوله تعالى:" و إذا بشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودا و هو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون"[5]

إنّها الأنثى ضحية الطابوات المختلفة في مجتمع ظالم ازدواجي متعسّف على النساء دون الرجال إذ "تشكّل أوضاع المرأة في الأسرة و المجتمع و العالم و التاريخ خطابا دراميا بطلته المرأة الضحية التي تجبر على أن تقبل ظروف الاضطهاد بوصفها كبشا للفداء، و سلعة مشيّأة في ظلّ هيمنة ذكورية تضطهدها و تلغي شخصيتها[6]

فالمرأة لا تملك زمام أمورها في يدها، بل تقع تحت وطأة المجتمع و تعيش دائما وفق ما تخطّطه الرؤية الذكورية المهيمنة حيث"وجدت المرأة نفسها في وسط يقيّدها و يحاسبها على أنّها فرد فاقد الأهلية، فرد لا يحق له أن يمارس حرياته المتنوّعة الكاملة إلّا ضمن الإطار الذي يحدّده العرف و المجتمع...يذكّرها المجتمع في كلّ لحظة أنّها تختلف عن الآخر و ينشئها تنشئة تقيّدها و تحدّد أفقها على حدّ تعبير الأديبة الفرنسية الوجودية سيمون دي بوفوار*"[7]

إذ أنّ المجتمع قد غيّب الحضور الفعلي للمرأة كذات لأنّه يراها وفق ما رسمه لها في وعيه التقليدي الذي يحيلها إلى مجرّد شيء أو موضوع فـ"ما من أحد يستطيع أن ينكر ما تلاقيه الفتاة العربية من تمييز مبني على أساس الجنس –ذكر أو أنثى- ينتهي بها الحال إلى منزلة أدنى من الآخر، و أقل منه رتبة... منزلة تشعرها على الدوام بأنّها كائن يختلف عن نظيرها (الفتى) من منظور اجتماعي صاغته الأعراف و المعتقدات، و رسخته التقاليد المتراكمة عبر الزمان"[8]

و هو ما جعل مأساة المرأة " مفتوحة على احتمالات الغربة و الضياع و الفجيعة"[9] و التهميش لتبقى الأنثى سجينة العادات و التقاليد التي أسّسها الذكور، و خاصة بعدما حوّلوا جنسها من صفته البيولوجية التي تحمل معنى الاختلاف و التميّز إلى صفة ثقافية ترتبط بكلّ معاني الدونية و الإقصاء و الاغتراب، كما أنّهم ربطوا فكرة الأنوثة ربطا وثيقا بقدرة المرأة على تأدية وظائفها البيولوجية كاملة لاسيما إذا ارتبط الأمر بالإنجاب في مجتمع يعدّ النسل فيه المؤشّر الوحيد لوجود المرأة، و إلّا لن تصنّف كأنثى.

حيث إنّ " تاريخ المرأة العربية يشكّل الحدّ الأعلى لصورة القهر الاجتماعي في المجتمعات العربية، بصفة عامة، و ذلك أنّهم استعملوا جنس المرأة كمادة لقهرها الوجودي العام، و الذي تحول بالضرورة عبر العلاقات الاجتماعية الجائرة إلى وسيلة فعّالة لقهرها الثقافي"[10] و هو ما استدعى من المرأة أن تفكّر في فعل حضاري يخلّصها من معاناتها و تحقّق حرياتها من هوّة جحيم الظلم الواقع على النساء، فعل ينفي عنها هوية الدون ويعمل على تحقيق وجودها كذات مختلفة و مستقلة.

لقد أدركت المرأة أنّ وجودها إنّما يتحقّق بالكتابة و السرد خاصّة، فالكتابة بالنسبة لها وجود وخلاص، و هو الموقف الذي تبنّته شهرزاد في حكيها و خلاصها من هيمنة الرجل.

وجدت المرأة إذن، في الإبداع السبيل الأمثل و الأنسب لخلاصها و خلاص بنات جنسها عن طريق استرجاع مجدها الضائع، مجد شهرزاد، مجد السرد" فشهرزاد- كما تعرفون- هي الساردة الأولى في ثقافتنا والجدّات ساردات مبدعات في المحكي الشعبي، و قد قيل عن الرواية إنّها" تاريخ النساء" أي أنّها لا تصلح في ظلّ غياب المرأة بوصفها شخصية رئيسة في بنى العلاقات و الأصوات و الرؤى"[11]

لذلك اختارت المرأة في التعبير عن ذاتها فنا يتلاءم معها، فن له علاقة حميمة و قديمة قدم المرأة" ذلك السرّ الوجودي الذي هامت به الحضارات، و أعلنت رسالتها من خلاله عبر آدابها و جمالها، تلك الهالة الوجودية عبقا و لحن وجود... تلك الكينونة التي تحمل المضادات في أعماقها، و تنعكس وجودا في لغة الأمومة و رسالة الحياة، تلك التماهية الضبابية الألقة في الآن ذاته، و التي تتشكّل في بلورة صفحتها القزحية منظومة تساؤلات حول تماهيات ذاتها و لغة الأدب،باعتبار أنّ الأدب هو جوهر الحضارات على مرّ رحلة الوجود"[12].

فكيف إذن لمن كانت ملهمة الشعراء و الروائيين و الأدباء بصفة عامة أن تعجز على أن تكون ملهمة ذاتها و تعلن عن تفرّدها في " القدرة على التعبير عن تجربتها الشخصية و سماتها الفردية"[13]من خلال بناء فكر جديد.

لقد ولّدت ظاهرة الاغتراب عند المرأة وعيا جديدا مختلفا أدركت منهأنّ خلاصها إنّما يكمن في الكتابة " فوجدها الكتابة بمقدورها أن تحدث خلخلة فيما هو سائد من قيم و أفكار و تربك الذات ببعديها الفردي والجماعي أمام جرأة السؤال بحيث تجعل الكلّ في مواجهة عارية أمام الذات"[14] بحكم أنّ المرأة تسعى إلى فهم ذاتها و دورها في الحياة من خلال فعل الكتابة الذي يعتبر مترجما للأفكار و المشاعر.

ذلك أنّ الكتابة تعدّ فعلا تحرّريا يتيح للمرأة/ الكاتبة أن تكتب ذاتها على الورق بصورة مغايرة للواقع المفروض عليها، و هي "الكتابة التي ينطلق فيها شعاع الوعي بالذات إلى البنية الطبيعية و العكس، أي أنّ الكتابة تكون بمثابة عملية اختراق للبنية و للمخيلة في آن واحد فتحصل الكتابة بالمعنى المرئي و هي ليست إلّا الكاتبة المؤدّية إلى المعرفة الدلالية، و الإرادية، و الواعية"[15].

و بذلك فالكتابة ليست مجرّد عملية بسيطة أو مصادفة، و إنّما لها أهمية كبيرة في إحداث التغيرات على مستويات عديدة سواء الفكرية أو اللّغوية أو المعرفية... أو غيرها.

إنّه الوعي الذي "يعكس امرأة مسكونة بهمّ التغيير: تغيير البائد و المتخلّف في الخطاب الثقافي السائد وخاصّة فيما يتعلّق بموقع المرأة و النظر إليها و التماس حقوقها"[16] أي وعي التغيير من خلال رؤية واعية "تؤكّد قسوة الخيارات التي تواجهها المرأة في مجتمع لا يتفهّم أدوارها الصعبة و كأنّ ما تقوم به فعل لا إنساني"[17]

إنّها الأنثى التي تتحدّى بالكتابة وضعها المأزوم لتتوحّد مع ذاتها و تتماهى معها و بذلك "تجد المرأة/الكاتبة إذن في فعل الكتابة متنفّسها و مساحة لممارسة حركية القول و الفعل و الانفلات من قيود الصمت، كما أنّ المرأة تمارس فعل الكتابة أيضا مثل الرجل وسيلة لتحقيق الذات"[18]

فإذا لم تحمل الكتابة وعيا بالذات و الآخر و العالم، تصبح مجرّد محاكاة "و هو ما يدفع بسؤال الكتابة إلى أقصى مداه حيث تتحوّل إلى مشكلة أنطولوجية على درجة قصوى من الأهمية، و ليس مجرّد رسم باهت لكلمات عارية عن المعنى و لا تثير قلقا أو استفهاما"[19]

لأنّ الكتابة الواعية هي الكتابة التي تحمل معاني القلق و الاستفهام باعتبارهما أساس السؤال الذي هو دلالة على الوجود و الكينونة، كما أنّه دلالة على القدرة على الكشف و التغيير، و من هنا يأخذ السؤال مفهوم المساءلة بحيث تصبح معه " الكتابة كمحنة تسائل الذات و تنتقد الآليات في مقاربة الواقع و المجتمع وليس مهمة روتينية. عندما تتحوّل الكتابة إلى محنة، تبدو في الأفق علامات الشعور بالوزن الثقيل لواقع مفارق عسير الإدراك و خصوصا عندما تتحوّل هذه المحنة إلى حكاية الوعي الجريح يستسيغ بمرارة تراجيديا الواقع المنفصم"[20]

إنّ أكثرما تحتاج إليه الكتابة هو امتلاك الوعي لأنّ أوّل ما يفرضه هذا الوعي على المرأة" هو عدم قبول وضعيتها المتدنّية و يكسب تفكيرها القدرة على ما يجعلها تابعة و مقلّدة و يكشف ذلك التضليل الناعم الذي يساق إليها فيجعلها تجنح عن الفهم و التعقّل و يسوقها لطريق حفرته الثقافة الذكورية السائدة منذ آلاف القرون بأن تكون خلف الرجل و لكن بامتلاك الوعي و ممارسته تملك المرأة أهم شرط- ليس لكتابتها فحسب بل لقيمة وجودها- الحرية"[21].

بحيث يصبح فعل الكتابة مرتبطا بالبحث عن أفق أوسع للحرّية تحقّق فيه المرأة توازنها المفقود بين ذاتها الداخلية و ذاتها الاجتماعية، بين ما ترغب في إعلانه و بين المسكوت عنه و كل مزيد من الحرّية، هو زيادة في القلق، ذلك أنّ القلق هو علامة على الوعي، و الوعي-دائما- يقلق و يثير و عدمه يريح على حدّ تعبير محمد الغذامي[22] و "القلق لا يحدث للإنسان إلّا إذا أصبح واعيا بوجوده، و أنّ هذا الوجود يمكن أن يتحطّم و أنّه قد يفقد نفسه و يصبح لا شيء.و كلّما كان الإنسان واعيا بوجوده زاد قلقه على هذا الوجود و زادت مقاومته للقوى التي تحاول تحطيمه. هذا هو السبب وراء انتشار القلق بين النساء المثقفات عنه بين النساء غير المثقفات، لأنّ المرأة المثقفة أكثر وعيا بوجودها عن المرأة غير المثقفة، و بالتالي فهي أكثر قلقا من أجل حماية هذا الوجود من القوى الاجتماعية التي تبغي تحطيمه"[23]

لذلك كانت الكتابة عند المرأة نتاج وعيها بخطر الثقافة الذكورية التي عملت على أن تبقى المرأة في حالة الراحة و الاستكانة. و من هنا كان على المرأة أن تعمل على تغيير نظرة الثقافة وفق رؤية واعية مختلفة تقوم على إعادة التوازن و تصحيح المغالطات من خلال كتابة حياة وعيها بذاتها على الرغم من أنّ "حياة الوعي بالذات ليست واقعة بسيطة و إنّما هي قلب و تحويل، فهي لا تنتج أشياء هذا النشاط بل تنتج نفسها، و هي لا تكون أو لا توجد إلّا داخل عملية إنتاج نفسها بنفسها، فالعمل المنتج لا يرقى إلى أسمى درجاته إلّا بما هو تحويل للمضامين المتباينة للذات إلى عنصر يتّصف بالموضوعية حيث تصير الذات واقعا كما يرى هيغل في فينومينولوجيا الروح*"[24]، يحقّق للمرأة المبدعة فكرا واعيا و جزءا و لو يسيرا من تشكيل ذاتها الحقيقية داخل فعل الكتابة."وبناءا عليه تصير الأنا موطن الكينونة و مفتاح فهمها و تنزل الميتافيزيقا من متاهاتها المجرّدة إلى بيت الكائن- هنا- لتسأله و تحلّل معانيه حتى تجد إقامتها"[25] في صورتها الفاعلة و المؤثرة في إعادة تشكيل الواقع الذي يبدأ " من تفجير المسكوت عنه و استخراج المكبوت في الوعي- من موروث ديني أو تاريخي- باللجوء إلى ذلك الموروث واستلهامه، ثم التعبير عنه في بناء استطيقي جمالي"[26] يعكس رؤيتها الخاصّة في بناء فكرها الذاتي الذي تسعى إلى تجسيده في كتاباتها." فالكتابة عند المرأة علامة على وعي جديد يدخل عالمها النسائي الساكن الهادئ المصان"[27] و ينقلها من حالة الراحة إلى القلق.

و بذلك تعي المرأة أنّ لها كيانا مستقلّا و ذاتا مختلفة تختلف عن ذات الرجل تستطيع أن تترجمها وفق رؤيتها، لتنقل صورة المرأة من الصورة التقليدية إلى صورة المرأة المعاصرة التي تختلف كلّ الاختلاف عن سابقتها وتعلن تفرّدها " من دون الرجل بالقدرة على التعبير عن تجربتها الشخصية و

سماتها الفردية"[28]، بما يخلّصها من معاناتها و صور اغترابها و يمحو خطيئة وجودها الدوني لأنّ" الموضوع الذي تسعى الذات (الأنثى) إلى اكتسابه يكون دائما الرغبة في إثبات الهوية و التخلّص من الوضع الدوني"[29]

**ثانيا: المرأة و فعل الكتابة / تجسيد الوعي:**

إنّه "حين يفرض على الذات أن تغيب عن واقع الحياة الثقافية المعاصرة في عالم لا يجيد إلّا الإقصاء، لا يتقن غير إبداع الثنائيات واستعمال آليات التمزيق، يحكم على المرأة أن تتسلّح بشتى الأسلحة لتحطّم جدار الصمت، وتقاوم التهميش، وتعلن بأعلى صوتها "أنّ الإبداع والثقافة حقل للجميع تتلاقى فيه الأصوات وتتفاعل... لا فرق بين رجل وامرأة في إطار الفعل الحضاري البنّاء".[30]

وطأت المرأة عالم الكتابة إذن، لتؤكّد أنّ الإبداع لا يخضع للتصنيف الجنسي وإنّما "أساس المفاضلة المشروعة مرتبطة بالقيمة الفنية والجمالية للنص الأدبي وليس بانتمائه إلى جنس أدبي معيّن .... سواء كان الكاتب رجلا أم امرأة ... أو يدّعي الانتماء إلى تلك الهوية"[31].ذلك أنّ مجال الفكر والإبداع يحتاج إلى الجنسين معا لإثراء العالم الأدبي، فما لا يمكن أن يفكّر فيه الرجل، يمكن للمرأة أن تفكّر فيه.

إنّ علاقة المرأة بالكتابة هي علاقة قديمة وليست وليدة الحاضر " وإذا ما بحثنا في علاقة المرأة بالكتابة و في مظاهر تفاعلها مع النص السردي نلفي الحكاية وقد تشكّلت أوّل مرّة خلقا هشّا ضعيفا تحبل بها (المرأة الكاتبة)، فتحملها في أحشائها مضغة، فعلقة حتى تكتمل، لتلد عن الاستواء رواية عبر الكتابة".[32]

لذلك ارتبطت الرواية ارتباطا وثيقا بالمرأة باعتبارها امتدادا لوجودها الذي تمظهر أوّل الأمر في فعل الحكي، ولكن على الرغم من أنّ المرأة تعرف " (الحكي) وتعوّدت عليه وسكنت فيه ولكن الكتابة عالم جديد و وعي جديد يخرجها من المألوف إلى المجهول ويحوّلها من حياة القناعة والتسليم والغفلة، إلى قلق السؤال وقلق الوعي، بما يحيط بها وما يجري وراءها ولها"[33]

إنّه القلق الذي أخرج المرأة من ظلمة الحكي إلى ضوء الكتابة والذي "يظهر بشكل أوضح حينما يرمز من خلاله إلى مسألة الهوية وما تصادفه من هيمنة وتسلّط، وما تعانيه المرأة في وجودها وكينونتها تحت ضواغط المكان ومؤثرات الأطر الثقافية والاجتماعية من مشكلات تؤزّم صراع الذات مع ذاتها ومع العالم المحيط بها".[34] وهو ما أكسب المرأة / الكاتبة رؤية خاصة لذاتها وللعالم سعت إلى تجسيدها في كتاباتها من خلال استنطاقها لتجاربها الحياتية والتعبير عنها بصوتها الخاص بغية بناء هويتها المستقلّة وذاتها المتفرّدة وبذلك فهي "تسعى إلى فهم الذات ودورها في الحياة وذلك من خلال فعل الكتابة الذي يعتبر مترجما للأفكار والمشاعر والنص الجميل الخالد هو الذي استطاع أن يصوّر هذه العلاقة بين (الذات والكاتبة)".[35]

اختارت المرأة فعل الكتابة و هو "فعل معادل لحكي شهرزاد من أجل بناء موقفها وتحطيم سقف نموّها، وبناء جسر الوصول لتحقيق حضورها الإنساني والاجتماعي".[36] فلطالما ارتبط الحكي بالنساء وهو الصيغة الشفوية للرواية وهو الأصل في هذا الفنّ السردي "أمّا وقد شاءت المرأة أن تمدّ يدها إلى القلم وتكتب فإنّها بهذا تخرج من زمن الحكي وتتحوّل من كائن مندمج إلى ذات مستقلّة تتكلّم بضمير الأنا وبالخطاب النهاري المكشوف"[37] ليظهر للمرأة وجه جديد وذات مختلفة تعمل من خلالها المرأة الكاتبة على رفع "صوت اعتراضها على استمرار هذا التشيّء وعلى بقاءها مجرّد موضوع منفعل لا فاعل ولا متحرك"[38]

من هنا كان دخول المرأة إلى عالم الكتابة "هو دخول في منافسة سافرة مع الثقافة الذكورية هذه الثقافة الراسخة والمهيمنة، وهذه الثقافة التي احتكرها الرجل لنفسه على مدى قرون"[39] لتظهر محاولات المرأة الجادّة في التغيير بارتيادها عالم الكتابة والإبداع وخلق متنفّس أوسع للسؤال في

تشكيل الذات " فلا يخف على أحد أنّ الإبداع والكتابة تولّد الحياة من ظلمة الفقد والغياب والرواية تحقّق للمرأة شيئا من تشكيل ذاتها الحقيقية داخل فعل الكتابة".[40]

وهذا ما أدّى إلى تزايد إقدام الكاتبات على خوض مغامرة السرد وخاصّة ما يتعلّق منه بفنّ الرواية لأنّ "الرواية هي الفنّ المنفتح على المجتمع بشكل خاص نظرا لطبيعتها الخاصّة التي تقدّم وعيا خاصّا للحياة، سواء أكان ذلك الوعي مرتبطا بلحظة راهنة أو ماضية"[41] حيث يتمّ رصد تلك اللحظة في ارتباطها بالوعي الذاتي والعام وفي اتصالها به وانفصالها عنه بما يجسّد هذا الوعي الذي يجعل "الرواية منفتحة على عالمين، العالم الآني، والعالم الماضي، ومعاينة الماضي في لحظة آنية تقدّم -بالضرورة- وعيا جديدا، لم يكن مطروحا لحظة المرور بالتجربة سابقا، ومن ثمّ نجد أنّ معظم القيم، التي تنظّم بصورة ضمنية مجموع عالم الرواية، لا تظلّ على حالها، وإنّما تتعرّض لمساءلة، ولوعي خاصّ ينبثق من لحظة آنية"[42] تتيح البحث عن إجابات الأسئلة المتّصلة بالذات والتي لا يمكنها أن تنفصل عن العالم الذي تعيش فيه ومن ثمّ إعادة تشكيلها في ظلّ هذا العالم بوعي جديد ورؤية جديدة للأشياء " فالرواية في سياق ذلك الرصد الخاصّ لأشكال الوجود الإنساني تعيد تشكيل وعينا بالأشياء، ومن ثمّ تعيد تشكيل وجودنا في ذلك العالم، من خلال طريقة تشكيل آلية ارتباطنا به"[43] وفق ما يعكس هذا الوعي بالوجود وطبيعة تلقّي العالم والذات وكيفية صياغتهما في الأعمال السردية عن طريق معالجتها لقضاياها الخاصة ومدى تفاعلها مع الوجود وهذا الأمر يقودنا إلى طبيعة المعالجة التي يمكن أن تتّكئ عليها المرأة في عرض قضاياها، والتي من دون شك ستنهض من تكوينها الذاتي كأنثى، ومن تكوينها الثقافي وحمولتها المعرفية في مجتمع ذكوري و في نسق فحولي، لذلك لن نجد امرأة ضدّ حرّيتها، وضدّ وجودها، وأقصد هنا المرأة التي أدركت بوعيها خصوصيتها و وجودها".[44] إنّه الوعي الأنثوي الذي يتمظهر جليا من حيث رؤية المرأة ومنظورها كذات فاعلة، منتجة للفعل السردي، لتخرج من ظلمة الحكي وهمس الليالي إلى ضوء النهار الساطع والكتابة.

لقد ولّدت ظاهرة الاغتراب عند المرأة أدبا أثار جدلا كبيرا حوله فاختلف النقاد بين وجود هذا الأدب وعدم وجوده، وإن كان لهذا الأدب خصوصية تختلف عن الأدب الذي يكتبه الرجل أم لا وبين مؤيّد ومناهض بقي هذا الأدب يتخبّط ويتأرجح خاصّة بعد السجال الذي عرف مع رائدات هذا النوع من الأدب، والذي جعل البعض يعتبره طائفيا ولكن سرعان ما تمّ الاعتراف به وأخذ يجذب إليه اهتمام القراء والنقاد والكتاب والباحثين ليصبح أرضية خصبة للدراسات المعاصرة.

عرف هذا الأدب بالأدب النسائي وهو أدب يخصّ المرأة "كإبداع له كينونته و خصوصيته في المشهد الإنساني، ويؤكّد خصوصية المرأة المبدعة في المجتمع والحياة الثقافية، ولا بدّ أن تؤسّس المرأة بذاتها لهذا المفهوم نظريا ونقديا ليكون تصنيفا جماليا منسجما مع ما وصلت إليه المرأة بأدبياتها بعيدا عن الفرز العنصري"[45] لأنّ الرجل لا يستطيع أن يعبّر عن المرأة بشكل موضوعي لأنّه يراها وفق الصور التقليدية النمطية. فالرجل / الكاتب لا يمكنه أن يأتي بما هو جديد فيما يخصّ المرأة وهو لا يضيف إلى معلوماتنا شيئا آخر غير الذي تمّ ترسيخه في الأذهان حولها سواء بوعي أو بغير وعي. وفي هذا المقام تشير سيمون دو بوفوار إلى قول أحد أنصار المرأة المغمورين أنّ "كلّ ما كتب عن المرأة من قبل الرجال يجب أن يثير الشبهات لأنّهم خصوم وحكّام في الوقت ذاته. وقد سخّروا اللاهوت والفلسفة والقوانين لخدمة مصالحهم".[46]

وقد نقل إبراهيم خليل تعريف الأدب النسائي عند ماري إيغلتون قائلا: "هو الأدب الذي يسعى للكشف عن الجانب الذاتي الخاص في المرأة، بعيدا عن تلك الجوانب التي اهتم بها الأدب لعصور طويلة خلت ... أي أنّ الأدب النسائي هو الأدب الذي يعبّر بصدق عن الطابع الخاص لتجربة الأنثى في معزل عن المفاهيم التقليدية، وهو - زيادة على ذلك - الأدب الذي يجسّد خبراتها في الحياة"[47] ويفتح المجال بشكل واسع أمام المرأة / الكاتبة ليتيح لها مساحة أكبر للتعبير عن حالاتها و رؤاها وأحلامها وفي التأسيس لخطابها الذي ينهض من ذاتها من حيث هي أنثى " بما ينطوي عليه من قلق المغامرة، لأنّه سرد منتج للقلق، وظاهرة تثير ما هو كامن و متروك على حافة النص أو حافة الذاكرة، لأنّ حواء التي أغوت آدم بالمعرفة، هي ذاتها حواء التي أغوتها المعرفة وبالتالي نهضت لإعادة تشكيل هذه الذات

التي كانت لزمن طويل مغيّبة، متوارية ومضيّعة".[48] فقد أدركت المرأة أنّها كي تكسب (قّوة) في الدفاع ثم في تغيير النظرة ثم في إثبات الذات كان عليها أن تكتسب المعرفة"[49] من أجل بناء هويّتها المستقلّة وذاتها المتفرّدة، إنّها المعرفة التي عمّقتها مرحلة الشعور بالذات "وهي مرحلة متطوّرة من الوعي والإدراك بوجود الذات حيث يدرك الإنسان أنّه إضافة إلى حياته الخارجية فهو يمتلك حياة داخلية أغنى بكثير، بل هي عالم من الإدراكات المتنوّعة للذات الواحدة وفيها يعتمد على الخيال والذاكرة والأحلام وغيرها"[50] والتي تعدّ عالما خصبا تنطلق منه المرأة في بناء أدبها الخاص الذي يؤكّد حضورها الفكري واختلافها عن الرجل في استلهام هذه الإدراكات بطريقة تعكس وعيها بعالمها الداخلي في إنتاجها الأدبي.

لذلك فـ " إنّنا عندما نقرأ مثل هذا الإنتاج الذي تكتبه المرأة ندخل عالما جديدا من غير المألوف الغوص فيه، فهذا العالم الداخلي لا يقدر على استخلاص ما فيه من أحاسيس ومشاعر و ردود فعل كبيرة إلّا امرأة تعاني - لا بدّ - من الكثير، سواء كان هذا الكثير خطيرا قاسيا ومؤثرا، أو أنّه مجرّد شيء يثر الانفعال والضيق والثورة المكتومة"[51] ضدّ ما هو سائد في الثقافة التي جعلت من المرأة جنسا ثانيا وعبّرت عنها بأساليب جعلتها دائمة المعاناة و وضعتها في رتبة ثانية دونية من دون قدرتها على فكّ شيفرتها ولغزها. فكيف يجري التعبير عن أحاسيس المرأة ومشاعرها ممن لم يفهمها أبدا بل جعلها تابعة «ومع كلّ ذلك فإنّنا نجد أنّ هناك من الكتّاب الرجال من يمسكون بالقلم للتعبير عن المرأة، وداخل المرأة، وكأنّ ما في داخلها سهل فهمه وسهل تفسيره، ممّا يؤدّي بالكثيرين إلى سرد الكثير من المغالطات وسوء الفهم التي لا تصلح بحال من وضع المرأة في بلادنا، أو في العالم أجمع"[52] وهو ما زاد من معاناة المرأة وفتح مأساة فجائعها واغترابها عن طريق ترسيخ تلك المغالطات التي لم يتم تجاوزها إلى حدّ الآن والتي تعتبر المرأة مجرّد متاع أو زينة يقتضيها عالم الرجل حيث "إنّ الواقع يكشف عن أنّ الرجل لم يحسن قراءة المرأة ليس لأنّه لا يريد ذلك، وإنّما لأنّه لا يستطيع ولا يسمح له رصيده الثقافي الذكوري بأن يفهم المرأة، وكثيرا ما عبّر الرجل بواسطة الأمثال والأحجيات والنكت، وبواسطة الخطاب الفلسفي على أنّه لا يفهم المرأة، وعن أنّها لغز عجيب"[53] وذلك لأنّه يراها وفق الصورة النمطية التقليدية التي رسمتها له الثقافة عنها - كما سبق ذكره - صورة المرأة الصامتة والشبقية التي تقدّم المتعة للرجل فقط. و أنّها غير قادرة على التعبير عن ذاتها لأنّها لا تملك العقل وبهذا فهي لا تملك المعرفة.

ولكي تنفي المرأة الكاتبة هذه الفكرة فقد عبّرت "مجازيا عن عجز الرجل بإزاء قدرتها هي على فهم الأنوثة، وذلك في حكايات شهرزاد التي تضمّنت رسالة غير مباشرة إلى الرجل توحي فيها إلى أنّه لا يعرف المرأة وتقترح عليه أن يترك ذلك لها هي حيث إنّها الأقدر والأعرف"[54]، فهي الوحيدة القادرة على فهم ذاتها والتعبير عنها وعن أنوثتها من أجل تصحيح كلّ المغالطات التي ألصقها الرجل بالمرأة سواء أكان ذلك عن وعي أو عن غير وعي وهو ما يؤكّد على أنّه «عندما تكتب فذلك يعني أنّها تكتب نفسها بعد أن تسقط كلّ الحائل من الأفكار والتصوّرات التي تجعل المرأة عدوّة لجسدها ولنفسها ولتستر وحدة كيانها. ولم يعد هناك ما يفصل بين الكاتبة والموضوع فتهدم المرأة عن خيالها وذاكرتها كلّ موروث العبودية".[55]

وفي ضوء ما سبق، يمكن تحديد خصوصية الأدب النسائي مثلما أشار إليها مفيد نجم "بالتمركز حول الذات، ورفض السلطة الذكورية، والبحث عن الحرّية"[56]، والتي سنبدأ الحديث عنها وفق الترتيب التالي الذي يتناسب ورؤيتنا.

**أوّلا: رفض السلطة الذكورية:** وتعني أن ترفض المرأة كلّ وصاية تلغيها وتحدّ من قيمتها لتنزلها منزلة الدون وهي بهذا تلغي "تسلّط كلّ بطريركي* يتمثّل في لفافات الإرث والأبوّة وأرديتها، التي تكمّم كلّ ميلاد، فيتحوّل الجسد والخلق إلى وأد يبارك بالصمت".[57] أي أن ترفض المرأة كلّ أشكال السلطة الذكورية في شكلها الأبوي بحكم «أنّ النظام الأبوي نسق ثقافي - تربوي - اجتماعي محكوم برؤية الرجل للعالم طبقا لعلاقاته ومصالحه بوصفه مالكا للنساء، والأشياء والأفكار، وهو مركز العالم،

ووجوده يضفي قيمة على الأشياء، وكلّ شيء يكون بمقدار اندراجه في مداره الخاص، وكلّما نأت لأشياء عنه تضاءلت قيمتها وأهميتها، فكلّ شيء يندرج في علاقة تبعية، وبخاصة المرأة التي تتكرّس وجودا في عالمه باعتباره كائنا تابعا، تكميليا، وتزيينيا، وموضوعا للمتعة".[58]وهذا يعني أنّ النظام الأبوي هو أوّل من كان سببا في فجيعة اغتراب الأنثى ومعاناتها ونقلها من وضعيتها المساوية للرجل إلى الوضعية الدونية. وهو ما يقودنا للحديث عن الخاصية الثانية التي تميّز الأدب النسائي وهي:

**ثانيا: البحث عن الحرّية:** أي خروج المرأة عن كلّ ما يقيّدها ويجعلها سجينة العادات والتقاليد البالية التي تطوّق المرأة وتكبّلها وتحدّ من حرّية تفكيرها ومساهمتها في بناء المجتمع وحمله على التطوّر ذلك أنّ "الهدف من تحرير المرأة هو إطلاق إمكانياتها الفكرية جميعا من أجل إثراء المجتمع فكريا، وإثراء حياة وشخصية النساء بالعمل المنتج والمشاركة في تطوير المجتمع، أي أنّها قضية حرّية فكرية للنساء من أجل العمل الخلّاق، وفي ظلّ المساواة الكاملة بين الجنسين، وليس مجرّد حرّية جنسية من أجل قتل الفراغ والملل، وامتصاص الطاقة المعطّلة".[59]

كما أنّ قضية تحرير المرأة لا تنتهي عند حدود الحرّية الفردية فقط، بل تمتد إلى الحرّية الجماعية، أي حرّية المجتمع بأكمله فـ "قضية تحرير المرأة قضية سياسية بالدرجة الأولى لأنّها لا تمسّ حياة نصف المجتمع فحسب ولكنها تمسّ حياة المجتمع كلّه وأنّ تخلّف المرأة وتكبيلها لا يؤخّر النساء فحسب ولكنه ينعكس على الرجال و على الأطفال، وبالتالي يقود إلى تخلّف المجتمع كلّه".[60]

فحرّية المرأة إذن، تعني حرّية المجتمع بصفة عامّة وحرّية الرجل بصفة خاصّة لأنّه إذا حرّرت المرأة ذاتها، فهي بذلك تحرّر الرجل من ثقافة ظلمته حين جعلته ظالما في نظرها وحمّلته مسؤولية عذاباتها ومعاناتها وتأخّرها وخلق شرخ كبيرة وهوّة عميقة بين الشراكة والعبودية لينفتح السؤال المهمّ عن كيفية العلاقة وماهيتها بين الشراكة والظلم في الآن ذاته، وبذلك كان من جملة ما سعت إليه المرأة في إبداعها هو البحث عن حرّيتها المسلوبة، لأنّ المرء لا يستطيع أن يكتب ويبدع ما لم يكن حرّا.

**ثالثا: التمركز حول الذات:** تعدّ هذه الخاصية من أهمّ خصائص الأدب النسائي وهي تعني أن تنطلق المرأة في كتاباتها من قضية مركزية ذاتية، بحيث تجعل من الذات البؤرة التي تدور في فلكها الأشياء والقضايا وتبنى من خلالها الحياة والإبداع. فالمرأة ليست مجرّد كائن اجتماعي فحسب بل إنّها كائن نفسي ثقافي تتعدّد آلياته بقدر تعدّد كياناتها بقدر تعدّد الخطابات من حولها.

من هنا تأخذ المرأة مسؤولية الحديث عن ذاتها ذلك "أنّ المرأة حين تتحدّث عن الموضوعات الخاصة بها، أقدر من غيرها على تصويرها لكونها ترى الأشياء من منظور مختلف".[61] وهو ما يؤكّد أنّ المرأة هي الوحيدة القادرة على التعبير عن ذاتها وعن تجربتها في "إطارها الخاصّ، ممثّلا ببحثها عن خلاصها من حيث هي أنثى".[62] لتصير الذات نسيجا عنكبوتيا ينسج خيوطه في كلّ مكان وفي كامل النص.

إنّ هذا التوجّه في كتابة الرواية النسائية من خلال التركيز على الذات، كان ذا تأثير مهمّ في وجود نوع من التلازم بين السرد النسائي والسيرة الذاتية من حيث أنّ هذه الأخيرة تعبّر "عن قضايا الأدب النسائي في شفافيتها المرتبطة عضويا للتعرية عن الحياة الشخصية الحميمة وهو ما يؤهّل مقام الأنوثة ليكون الموقع الفعّال الذي يتمّ انطلاقا منه رصد خصوصيات المنظور النسائي في صياغة الرؤيتين الذاتية والموضوعية للأنا والعالم".[63]

وبذلك أعطت السير الذاتية للروائيات "متّكأ جديدا تجد من خلاله الذات متنفّسا لها وتبوح وتعترف بكلّ ما كانت تحسّ به من ضيم وضيق في كنف القبضة الحديدية"[64] عن طريق رفع صوت الأنثى سعيا إلى رسم صورة جديدة عن المرأة تبدأ من ذاتها "بوصفها المنطلق الأساسي لتشكيل جنس كتابي خاص، بغرض تحديد هوية هذه الذات من خلال الكتابة".[65]

فأهمّ ما يربط الأدب النسائي بالسيرة الذاتي إذن، هو ما تتّسم به السيرة من "الجرأة و الكشف عن الذات، وهما صفتان ليستا مألوفتين في الكتابة العربية وخصوصا كتابة المرأة".[66]

لذلك اتسمت كتابات المرأة بالخروج عن المألوف في رسم خصوصيتها وانتهاج نهج مغاير يختلف عن النهج الذكوري في الكتابة ينطلق من خلال ارتياد المرأة لعوالم الذات وفق رؤية واعية يتداخل فيها الواقعي والخيالي مع العاطفي والحسي "لأنّ الالتحام بين الحسّ والفكر هو حوار العبور إلى تصالح الذات مع نفسها، ذلك التصالح الذي يمكّن الكيان الأنثوي المتكامل من الوجود الفعّال المؤثّر« ويرتقي به ارتقاء نوعيا يجعله يساهم في تطوّر الإبداع وإغناء التيار الأدبي".[67]

إذ أنّ "إسهام الأنثى في تشكيل الظاهرة الأدبية إسهاما فعالا في المشهد الثقافي العربي والعالمي الراهن، ينطوي بحدّ ذاته على إشكالية، تتجسّد في أنّ الأدب سبيل يلزم من يرتاده بالكشف عن البواطن والبوح بمكامن الاستثارة والوجع".[68]

**ثالثا: وعي الذات بين اللّغة الأنثى و أنثى اللّغة:**

يبدو أنّ المرأة تصارع في سبيل وجودها من خلال إيمانها أنّ خصوصيتها نابعة من اختلافها البيولوجي والنفسي و الاجتماعي و الثقافي، كما أنّها نابعة من ظهور اتجاهات جديدة على مستوى المضامين و اللّغة، فكان من جملة ما ركّزت عليه المرأة/الكاتبة في التعبير عن ذاتها هو الميل إلى استعمال لغة واعية تحمل في طيّاتها روح الذات الكاتبة، و تعكس مواقفها و آمالها، و تبلور مفاهيمها و وعيها، و تنقل مكنوناتها. لغة تكتسب خصوصيتها من خصوصية المرأة، تكون قادرة على التعبير عنها و عن وعيها، قادرة الخلق و التوالد، تضفي على لغتها سمة الأنوثة بحيث تخلق من الكلمات روحا و جسدا يؤسّسان للتناغم بين الصوت الداخلي للكلمة والمعنى المعبّر عنه والعاطفة التي تتخلّلها، و كأن اللّغة تتكلّم عن نفسها و ليس مجرّد أن تكون وعاء للنقل فقط.

إذ أنّ أهمّ ما يحتاج إليه إبداع المرأة هو " النفاذ إلى غورة العميق و الكشف عن أبنيته اللّغوية و البلاغية، ليكون النصّ هو المحكّ الحقيقي و الأوّل بعيدا عن كلّ الاستنتاجات التي قد تصرف المساءلة النقدية عن القراءة التفاعلية المتناسلة الواعدة بما لا يعدّ من الدلالة الحريصة على تجاوز فكرة التصنيف الجنسي في كلّ مستوياته، والتركيز على ما هو إنساني في العمل"[69].

و هو ما جعل المرأة تصارع من أجل إثبات ذاتها، فكان من جملة ما سعت إليه في إبداعها هو البحث " عن إنسانيتها المسلوبة و حرصها عن طريق لغتها الخاصة على بناء وجود في الموقع الإنساني الثقافي المضاد للموقع الفطري القمعي الواقعي المفروض عليها"[70].

و لما كانت الرواية هي الخطاب القادر على معانقة التحوّلات الجديدة التي عرفها العصر الحديث، وترتبط بوثوق بروحه التوّاقة إلى التغيير الدائم على حدّ تعبير سعيد يقطين[71]، فإنّ المرأة تتّجه إلى هذا الفنّ الذي تتقاطع أهدافه مع أهدافها في تغيير الواقع بمختلف مجالاته. و لعلّ هذا ما جعل المرأة تدرك أنّ وجودها إنّما يتحقّق بالكتابة لفتح المجال أمام قراءات أخرى حولها تتجلّى فيها ذاتها المبدعة علما بأنّ " الوصول إلى هوية الذات ليس شيئا سهلا، لأنّ هذه الذات منفتحة على عناصر تتماس معها مثل التاريخ و الزمن"[72].

و أثناء تداخل الذات بالمعطيات السابقة، أدركت المرأة أنّ " لغة استيعاب الأنا و الوجود و منظومة إسقاطاتهما لا تتشكّل لتوّها عند تشكل الحروف على السطور(...)، بل تكون قد اخترقت مرحلة الإشباع في ذبذبات التماهي في الأنا و الوجود، التي تخلق معها الحروف (...)، فتغدو الصورة الفنية التعبيرية في الأدب (...) في تماهي مبدع تشكلت مادته من لوحة الواقع و إسقاطاتهما و تماهيات الأنا و تعرّجاتها في الشعور"[73].

لقد عكست المرأة/الكاتبة ذاتها وفق أساليب "تخلع فيها خطيئة الصمت، و تواجه الذات... و تكاشف الحاضر بمساءلة عن موقعه و بمحاكمة التاريخ و الإرث و الحقيقة"[74] من خلال تعرية الواقع و فضحه وفق معجم لغوي خاص يتشكّل وفقا لخصوصيتها و اختلافيتها.

هذه الخصوصية و الاختلافية المستمدّة بالدرجة الأولى من جسدها بحكم أنّ الجسد" هو سيل الكتابة عند المرأة و نارها التي لا تنضب و معجزتها التي لم تكتمل، فمن الجسد تقبض المرأة على شيطان لغتها و من معجمه تزيّن السرد ببروقه و رعوده و تركب على أحصنة اللّغة"[75].

فالمرأة ترى في الجسد لغة في اللّغة، و لها وحدها يسلم الجسد مفاتيح الكلام، لا سيما إذا علمنا أنّ الجسد الأنثوي هو "مجرّة من العلامات" أو القارة المجهولة على حدّ تعبير الغذامي[76]وجب إعادة النظر فيها وإعادة قراءتها و اكتشافها. فجسد المرأة يمثّل شبكة عنكبوتية يصعب فصلها" عن وعيها و نفسيتها و خيالها وتصرّفاتها، و كلّ ما ينتج عنها من علامات واعية و غير واعية تجاه ذاتها و الآخر و مكوناتهما من حولها"[77].

تنهل المرأة/الكاتبة من معجم لغوي يشعّ فتنة و جمالا، لتصبح اللّغة مغرية فاتنة و كأنّها تتعرّى لتلبس الكلمات لغة الأناقة، لغة الإغراء، فتخلق المرأة من جسدها المادي المتشيّء جسدا لغويا يحمل في طياته بذور الفنّ و الإبداع، فتسقط المرأة جسدها الفاتن لتصنع منه لغة مغرية، لغة جذابة و جميلة مطرّزة تعكس جسدها في مظهر لغوي رفيع تحسّ فيه و كأنّ اللّغة تتجمّل و تتأنّق و تتعرّى لتحدث فينا نوعا من الإغراء و الانجذاب، لغة رشيقة و خفيفة تعكس خفة و رشاقة و جمال الجسد الأنثوي، كما تعكس جمال الفنون التي تمارسها المرأة و تميل إليها "و من ذلك أنّ جمال المرأة هو المشروعية المكتسبة لتأسيس هوية الأنثى التي تجد شكلها النهائي في الإغراء، لأنّ المرأة التي لا تستطيع أن تغري تعيش وجودها خارج ذاتها و بشكل عدمي"[78].

و بذلك تحوّل المرأة/الكاتبة الجسد من جسد مادي إلى جسد لغوي يحمل كلّ معاني الجسد الأنثوي"فالمرأة حين تمتزج بالكتابة، تتفاعل معها جسدا و روحا، مخلصة في ذلك إلى حدّ إفراغهما على الورق، و إذا كانت (الساردة) تعتني بجسدها، فهي أيضا تعتني بتشكيل نصها الإبداعي"[79] الذي يعبّر عن ذاتها و وعيها و الذي تلقي عليه بظلال أنوثتها و "تستسلم معه إلى غواية اللّغة، و سحر اللفظة، و زئبقية الصورة، فتنحت نصها القريب من ذاتها و من جسدها، و تطبع بصمتها، لتبقى فيها عبق الأنوثة، و جاذبيتها التي يخطئها السرد الذكوري لا محالة"[80].

لتؤكّد المرأة أنّ الجسد الذي كان رمزا لدونيتها هو نفسه الجسد الذي أعطاها خصوصيتها و رفعها إلى درجة التميّز و التألّق في الكتابة و الذي أصبح رمزا من رموز الذات الأنثوية، لتخرج المرأة عن تلك الصورة الدونية و تحطّم صنم الهيمنة الذكورية، فارضة كيانها المستقل و وجودها المختلف كذات فاعلة منتجة للفعل السردي الذي يحمل بداخله روح الأنوثة و يجمع بين الذات الأنثوية و الآخر الذكر، كما يجمع بين مغامرة اللّغة و لعبة الجسد في علاقاتها، و كلّ ما يتعلق أيضا بمستوى التعبير عن هذه العلاقات و تداخلها مع بعضها البعض.

و في هذا السياق "و بما أنّ الكتابة هي علم متع اللّغة، و الأدب عموما هو اللّغة... الكلمات، الحروف، حيث تأتيك حين الكاتبة نشوة توقد فيك كلّ مشاعل فتنتها...فرحها...ألقها...تراودك عن نفسك أينما وجدت فإنّها هي الأداة التي ستمنح المرأة مصالحتها مع ذاتها، فقد اغترفت و نهلت من معجم أنثوي خاص بها، وأصبحت لغتها لغة مؤنّثة، لغة مليئة بالرقّة و الحنان، ابتعدت عن المرأة- الرجل لتقترب أكثر من هويتها الجنسية المرأة- الأنثى و استرجعت باللّغة أنوثتها، بدأت تتجرّأ شيئا فشيئا على فحولة اللّغة و أنّثت الخطاب الأدبي"[81]لتعلن المرأة/الكاتبة أنّ " اللّغة لهي المعرفة و إنّها لهي الخصوصية و الاختلاف في الوقت ذاته"[82].

إنّه الاختلاف الذي يجعل من الكتابة أنثى" هي أنثى من حيث كونها خصب و تمرّد و تحليق"[83]،كتابة تحبل بالحكاية لتلد نصا لغويا في صورة رواية تحمل في طياتها نسائم الأنوثة و الخصب" إنّها أرحام لغة الأنثى التي تستعيد ترتيب الأوراق، و تكسر ثنائية اللّفظ و المعنى من أجل إعطاء المعنى حقّه في تقرير مصيره من دون وصاية اللّفظ عليه"[84]، و هو ما جعل المرأة ترتاد مواضيع مختلفة عن تلك التي كتب فيها الرجل تنطلق فيها من ذاتها وتعتمد فيها على طرق جديدة في تأنيث اللّغة تبدأ من أسس البلاغة العربية و ذلك بتوليد المعاني من خلال أنساق و أساليب تتمثّل خاصة في تقنية الانزياح و قدرتها في تشكيل لغة أنثى،فلما "كانت عناية المرأة، أثناء العملية السردية، تستقر

في متابعة التفاصيل الصغرى، و التقاط الدقائق المهمّشة، باعتبار أنّ صياغة المشهد الروائي عند المرأة المبدعة، يخضع لخصوصية جنسها، و تكوينها البيولوجي، و غلبة دفق الأحاسيس و المشاعر، و توظيف الحواس بامتياز، بحيث تضع مشهد العالم المتخيّل، بمنظور الأنثى، لأجل هذه الاعتبارات مجتمعة، استبدت تقنية البوح و النجوى في استحضارها، و تولّد لدى (المرأة/ الكاتبة) نمط أسلوب عدّ من خصوصياتها، تمثّل في توليد الأساليب و الأنساق الجديدة، وفق لغة دافئة موحية، و تشكيل لغوي فريد، يأخذ أسبابه من خزّان الإحساس، وقاموس الحواس، و نبض الجسد، و همس الخاطر، و حديث الروح، و ما اختزنته الذاكرة النسوية و اللاوعي الأنثوي في مراحل تشكّلها الممتد"[85]عبر رحلتها الإبداعية التي تنبني على ثقافة فكرية تبرز قدراتها المعرفية التي تظهر فتنة السرد و تجعل "من المتخيل السردي وسيلة لإعادة تشييد و بناء الهوية الثقافية العربية"[86]. فالخيال له دور كبير من حيث قدرة المرأة على تفجير قدراتها العقلية بحيث" يعدّ عقل المرأة و ما ينتج عنه من رؤى و أخيلة متأثّرة بأوضاعها الحسية و الجسدية و الموضوعية الأساس في تشكيل خطاب المرأة المولّد لثقافة مغايرة و جماليات مختلفة"[87].

لذا يعدّ الخيال بمثابة إنتاج سحري يجسّد الفكر و إرادة الذات، فهو يعمل على توليد العالم الملموس وإنتاج الفكر"لأنّ الفكر نفسه يفصح عن عظمته في عملية خلق الثقافة و من ثمة تصوّر أنموذج حضاري معيّن"[88].

من هنا، تعمل الكتابة الأنثوية على "بعث سلطتها التخيلية وفق بناء استطيقي، محاولة بذلك تقويض (الآخر) المذكر و معارضة الصورة الخارجية التي رسمتها الأعراف و الأبنية الفكرية"[89]. فتحاول الكتابة الأنثوية الانفتاح على فعل التخييل من حيث هو حالة من الخلق و تشكيل الذات عن طريق تفجير قدراتها العقلية والمعرفية ذلك أنّ" الرواية الأنثوية كتابة أسطورية تنبني على ثقافة فكرية، تستدعي من خلالها البوح، بمكابدة تطمح فيها الذات الأنثوية إلى إبراز قدراتها المعرفية على جغرافية الفكر و الثقافة الذكورية، فتظهر فتنة السرد وشعريته في تماهي وحداته عبر المخيال السردي"[90].في ارتباطه الوثيق بالذات.

و هكذا، و في ظل المعطيات السابقة، نجد أنّ الخيال يعمل مع ما سبق من عناصر في بناء فعل حضاري جمالي يجسّد وعي المرأة الكاتبة من خلال لغة أنثى واعية هي الأخرى بحاجة المرأة إلى رسم خطابها الذي ينهض من ذاتها.

*البطريكية: هي التسمية التي تطلق الآن على (السيطرة الذكورية في مقابل امتهان المرأة وتهميشها أو عدم الاعتراف بحقوقها).